وتحاول سبر أغواره، والنفاذ إلى خباياه، والولوج إلى اسراره، محاولة استظهار مواقع الضعف ومواطن القوة، واستبيان خصال الصمود وخلال الانهيار، وفي هذا السعي، كانت رؤية الكاتبة تمازج بين الاخلاقي والانساني والديني، أخلاقي ينوس بين التجريد والتحديد، وإنساني ينزع إلى التحديد والمعاش، وديني واضح وغائم يلف البعدين الآخرين بقماطه الخاص، الباحث عن السعادة والمتسامي في بحثه، فكأنه يقول: إن السعادة حلم، وإن الكتابة الحالمة لا تسعى إلا لقيم حالمة.

عن علاقات المرأة والرجل

تحتلّ المرأة مكاناً فسيحاً في قصص سميرة عزام، وليس هذا الامر بغريب، فدخول امرأة إلى عالم الكتابة في مجتمع لم يقبل بتحرّر المرأة بعد، يجعل فعل الكتابة هذا خروجاً على العرف او خطوة في مجال اللا مألوف، ويجعل الكاتبة تتصدّى للعرف الغريب، وتذهب في كتابتها، فتدافع عن المرأة كتابة، وتماثل بين أفق الكتابة وأفق المرأة المنشود. وعلى الرغم من «ظل المرأة الكبير» الذي يغطي كتابات سميرة، فإن هذا الظل لا يغدو تحزّباً، ولا ينقلب إلى نسوية جامحة، بل يظل مرتسماً في رؤية الكاتبة، التي تجعل من تحرّر الانسان رسمها الوحيد.

وإذا شئنا تنضيد وضع المرأة في قصص سميرة عزام، فإننا نبدأ بالنقطة الاولى، والنقطة الاولى هي الحضور المستمر للمرأة في الكتابة، والذي يمتد حتى يحتضن اكثر من نصف مجموع القصص المشار إليها، فالمرأة حاضرة في الحب، وفي الوطن والغربة، وهي ماثلة في كل علاقات الحياة الاجتماعية. فعندما تذهب سميرة في عالم الاخلاق والمثل، فإنها تتكىء على المرأة «أمومة خيّرة»، وعندما ترسم حياة البسطاء وبساطة وعيهم فإنها تأخذ المرأة موضوعاً «الغريمة»، وهي تتخذ من المرأة مركزاً حينما تلمس عالم الهموم اليومية وهموم الوطن البعيد «مفكرة ــ عام آخر». بكلمة اخرى، فإن سميرة عزام المدافعة عن تحرّر الانسان، تتجاوز المعنى التقليدي والمسيطر لمقولة الانسان، وتوحّد في هذه المقولة بين المرأة والرجل، ثم تصل إلى رحاب الحياة، فتراقب في مسارها موضع الرجل ومكان المرأة، ثم تكتب كلماتها واضحة، وفي وضوح الكلمات تنادي بمساواة المرأة بالرجل في مقولة لا تراتب فيها: مقولة الانسان المتحرّر.

من يماثل بين الانسان والتحرّر يرجم مواقع السوء، ويرسل بكلماته ضد القيود والابواب الموصدة، وقيود المرأة في المجتمع لا تحتاج إلى دليل، ومن اجل المرأة وضد القيود كتبت سميرة عزام، وساءلت وضع المرأة في المجتمع، او ساءلت من موقع النفي مفهوم المرأة للمجتمع، وبعد المساءلة كتبت عما هو موجود. نقرأ في قصة: «إلى حين» موضوع المرأة ــ الدمية، او موضوع المرأة ــ الشيء، المرأة التي لا تمارس إرادتها، بل تحقّق إرادة الآخرين، وفي إرادتهم تغدو خادمة البيت، وفي ذات الإرادة تصبح دمية ملوّنة مدلّلة معروضة للتبادل، فإن خاب التبادل ارتهنت من جديد إلى الإرادة الحاكمة. يستيقظ موضوع المرأة المسلوبة الارادة في أقاصيص عدة، ويأخذ شكله الصاخب والمحتج في قصة: «نصيب»؛ حيث تمشي المرأة على السبيل الذي حُدّد لها مسبقاً، فتنصاع إلى إرادة